التوجهات السلمية والدبلوماسية

في سياسة الرسول ﷺ

لأبي إبراهيم

الدكتور/ عبد العزيز بن إبراهيم بن علي البليهد

مؤسسة الجليمي للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى لمؤسسة الجليمي

١٤٣٧هـ- ٢٠١٥م

مؤسسة الجليمي للنشر والتوزيـــع

٨١ شارع البستان (عبد السلام عارف سابقًا)

تقاطع شارع الجمهورية- عابدين- القاهرة

هاتف: ٢٣٩٣٥١٩٠ -٠١٠٠٦٧٥٦٧٣٩ -٠١١١٩٩٠٣٨٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.. **وبعـــدُ:**

فإن المطالع لسيرة الرسول ﷺ يرى من العبرة والعظات والمواقف التربوية ما لا يحصى، والباحث في شخصية الرسول الأمين ﷺ كقائد فذّ، يتبين له الكثير والكثير من الدروس والأصول والأسس التي تقاد بها الأمم، وتكتسب بها الدول، وتستمال بها القلوب؛ وتفتح بها الثغور، وتنتشر بها الدعوة.

وهذا البحث حول «**التوجهات السلمية في سياسة الرسول** ﷺ» في نشر الدعوة الإسلامية؛ لبيان هديه ﷺ في إبلاغ رسالة ربه، وكيفية تعامله مع الأحداث، وطريقة إدارة الأزمات.

وقد جعلت هذا البحث في ثلاثة مباحث:

الأول: النوايا السلمية للرسول ﷺ وسياسة تجنب القتال.

الثاني: الفكر الدبلوماسي للرسول ﷺ ووسائله.

الثالث: أغراض وأهداف السياسة الدبلوماسية للرسول ﷺ.

وبينت في هذا المبحث: الأهداف السياسية، والأهداف الاقتصادية، والأهداف العسكرية، ويتجلى لنا بوضوح في جميع سياسات الرسول ﷺ النظرة بعيدة المدى في أهدافه وأغراضه المتعددة، والمحاولة المتأنية في تجنب ويلات الحروب والمعارك.

أسأل الله عز وجل أن يتقبل مني هذا البحث بقبول حسن، وأن يوفقنا للصواب والسداد والهدى والرشاد، وأن يجنبنا الخطأ والخطل والزلل، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، وصلِّ اللهم على نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الدكتور

عبد العزيز بن إبراهيم بن علي البليهد

المبحث الأول

النوايا السلمية للرسول ﷺ

وسيـاسـة تجنب القتـــال

لقد نفذ أمر كتابه الكريم نبيه ﷺ بأن يجنح للسلم في حال ما إذا كانت هذه رغبة أعدائه فقال: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال:٦١]، وقد كانت أوامر الله تعالى صريحة باتخاذ السلم في حياة المسلمين مع أعداء الدعوة قدر الإمكان، وإلا فإن الجهاد في سبيل الله ومقاتلة الذين كفروا من أعظم الأعمال التي تقرب إلى الله تعالى.

ومن هذا فقد انطلق الرسول الكريم ﷺ في سياسته السلمية تجاه أعداء الدعوة، إلا أن الشيء اللافت للنظر أنه ﷺ- وبناء على أوامر الله تعالى- قد أظهر نظامًا دبلوماسيا غاية في الدقة، وظَّفه لخدمة مصالح المسلمين السياسية والاقتصادية والعسكرية، وكان هذا النظام بحق ينم عن فكر دبلوماسي مميز في خطوطه المتعددة، رسمه الرسول ﷺ في

الكثير من الأمور التي مرت بالمسلمين بسبب طبيعة الظروف.

وقبل الخوض في تفصيلات الموضوع ينبغي الطرق قبلا لبعض شواهد الحياة العملية للرسول ﷺ والتي نفهم من خلالها نزوعه ﷺ نحو السلم وتجنب القتال، ويمكن من خلال هذه الشواهد أن نرسم صورة واضحة المعالم، هذه السياسة من خلال إجراءاته ﷺ في توطيد السلم، ومن خلال أوامره بعدم البدء بالقتال، ومن خلال إلقائه الحجج على الأعداء كإجراء أخير قبل القتال.

كان الرسول ﷺ يحرص على عدم الاصطدام مع الأعداء سواء كان في موقع رغبة في تحقيق السلم بما يحقق الهدف بأقل الخسائر، أو الخيار الآخر، فلما كان الرسول ﷺ في بداية تواجده في المدينة، وعندما يرسل السرايا كان يأمر أصحابها بتجنب القتال، وكان يشدّ على أيدى الرغبة في السلم كما حدث في سرايا حمزة إلى سيف البحر، إذ حصل رهط مجدي بن عمرو على كسوة من الرسول ﷺ تقديرًا لهم،

وذلك لأنهم حجزوا بين أفراد هذه السرية وبين المشركين، ومنعوا نشوب القتال(١).

وهذا يدل على أن الرسول ﷺ لم يبعث هذه السرية لقتال أصلًا وإنما لمهمة أخرى، وفضلا عن ذلك فإنه يدل أيضا على رغبته ﷺ بالسلم في هذا الوقت من الدعوة.

وليس هناك أدل على منهج الرسول ﷺ الرافض للقوة من موقفه من عبد الله بن أبيّ حول حلفائه من بني قينقاع إذ أمر الرسول ﷺ بقتلهم بعد أن نزلوا على حكمه، فجاء ابن أبيّ وأدخل يده في جيب درع الرسول ﷺ، وهدده، وطلب منه أن يعفوَ عن حلفائه، ولم يتركه إلا بعد أن عفا عنهم(٢).

(١) الواقدي، المغازي، رسول الله ﷺ، تحقيق مارسدن جونس القاهرة، ١٩٦٤، ١/ ١٠/ابن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت، د. ت) ٢/ ٦، الطبري، تاريخ الرسل والملوك (القاهرة، ١٩٦٩) ٢/ ٤٠٢، المكي، سمط النجوم (القاهرة، د. ت) ٢/ ٤.

(٢) الواقدي، المغازي، ١/ ١٧٨، ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا (القاهرة، ١٩٥٥) ٣٢/ ٤٨، الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٤٨٠، السهيلي، الروض الأنف، تحقيق: طه عبد الرؤوف (القاهرة،=

ولكي يكون حكمنا على هذا الموقف حكما صائبًا مقنعًا ينبغي أن نلتفت إلى عدة اعتبارات:

* أن الموقف مع بني قينقاع كان لصالح المسلمين لا سيما وأنهم قد نزلوا على حكم الرسول ﷺ ورضوا بشروطه.

* أن الرسول ﷺ أثناء قدوم ابن أبيّ عليه كان في عزة ومنعة بين المسلمين، الذين كانوا على استعداد للتضحية بالغالي والنفيس من أجل حمايته ﷺ.

هذا فضلًا عن العناية الإلهية التي تحيط به.

* إن التاريخ لم يسجل لنا في يوم من الأيام طعنا في شجاعة النبي ﷺ أو خشية من أحد وإلا لما كان مؤهلا لحمل الرسالة السماوية.

وعليه فإذا ما طالعنا هذه الاعتبارات أمكننا القول بأن الرسول ﷺ كان قاصدا لما يفعل، فلم يكن موقفه عن ضعف ولا عن خوف من ابن أبيّ، وإنما قد بني هذا الموقف على

= د. ت) ٣/ ١٤٣، ابن الأثير، الكامل في التاريخ (بيروت ، ١٩٦٥) ٢/ ١٣٨، ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ (بيروت، ١٩٦٦)، ٤/ ٤.

عدة أمور:

١- بُعد نظر رسول الله ﷺ في سياسته تجاه اليهود وتجنبه الاصطدام مع عبد الله بن أبيّ والمنافقين في فترة ما زالت حرجة على المسلمين لكونهم قوة ناشئة.

٢- تجنب السخط الذي قد يحدث على المسلمين من قبل القبائل خارج المدينة في حال قتل هذا العدد الكبير من اليهود ومهما كان السبب في قتلهم.

٣- تجنب إثارة حفيظة باقي اليهود في المدينة وخارجها، ومحاولة التقليل من ردة فعلهم تجاه المسلمين.

٤- أن الرسول ﷺ والمسلمين في تلك الفترة كانوا بحاجة إلى مال وسلاح بني قينقاع أكثر من حاجتهم لدمائهم، الأمر الذي دعا الرسول ﷺ للاكتفاء بما حصل عليه المسلمون من نصر ومن أموال وسلاح.

* **وخلاصة القول:** فإن الرسول ﷺ لم يغير رأيه في بني قينقاع؛ لأنه خشي من ابن أبيّ حينما وضع يده في جيب درعه، وإنما الأمر كان واضحا في ذهن الرسول ﷺ، وكان مدركا لما

يعنيه، ومخططا للأهداف التي ذكرناها سابقًا.

ونفس الحادث قد تكرر في يوم الحديبية إذ كان عروة بن مسعود رسول قريش إلى المسلمين يتناول اللحية لرسول ﷺ وهو يكلمه[١]. بل أن الرسول ﷺ قد نزل عند رغبة سهيل بن عمرو الذي أوفدته قريش لكتابة الصلح مع المسلمين.

وأمر بكتابة عبارة «باسمك اللهم» بدل «بسم الله الرحمن الرحيم» وكتابة «محمد بن عبد الله» بدل من «محمد رسول الله ﷺ» وقد ضج المسلمون لذلك فأمرهم الرسول ﷺ بالسكوت[٢].

ويبدو أن تفسير هذا الأمر واضحا أيضا فلا غرابة أن نجد الرسول ﷺ يتحمل كل هذه المضايقات في سبيل إبرام الصلح، وذلك لما عرف من بُعد نظر سديد لا يخفى على

(١) الواقدي، المغازي ٢/ ٥٩٥، ابن هشام، السيرة النبوية ٣/ ٣١٣، ابن الأثير، الكامل ٢/ ٢١٠.

(٢) الواقدي، المغازي، ٢/ ٦١١، ابن هشام، السيرة النبوية ٣/ ٣٩٧، ابن الأثير، الكامل ٢/ ٢٠٣، ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ١٦٨.

المتتبع لسيرته ﷺ، فهذا الأمر في نظر المسلمين هو تنازلا لقريش على الرغم من أن المسلمين كانوا في موضع قوة، فعلى أقل تقدير أنهم كانوا مساوين لقريش، هذا إذا ما قلنا أنهم أقوى، وذلك لأن قريشًا لم تستطيع مجابهتهم وإنما وافقوا على الصلح معهم، لكن كما ذكرنا فإن النتائج ظهرت بعد فترة قدرها الرسول ﷺ وحده بما كان يمتلك من سياسة بعيدة المدى[١].

أما فيما يخص تجنب الرسول ﷺ البدء بالقتال، فيمكننا من خلال سرد خاص بالمعارك التي ذكرت المصادر بدايتها أن نصل إلى نتيجة مفادها: أنه لا توجد هناك معركة واحدة بدأ المسلمون فيها القتال، وذلك بتوجيه من الرسول ﷺ نفسه وإنما جميعها كان قد بدأها المشركون؛ لأن الرسول ﷺ كان يحرص على أن يستنفذ كل الإجراءات السلمية قبل الخوض في المعركة، وهذا ما فُهم من وصيته لأصحابه يوم بدر إذ قال

(١) ينظر عن نتائج صلح الحديبية محمود شيت خطاب، الرسول القائد (بغداد ١٩٦٤)، ص ٢٧١.

لهم لما تصَافّ الفريقين للقتال «لا تقاتلوا حتى أوذنكم، وأن كثبوكم فارموهم، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم»(١).

وصحيح أن هذه الوصية هي خطة عسكرية، إلا أنها قد تكررت في باقي معارك المسلمين، وحتى في أوضاع مختلفة من القتال، والشيء المهم الذي نفهمه من ذلك هو عدم بدء المسلمين بالقتال حتى يبدأ العدو بالهجوم فلا يبادر المسلمون بالقتال بناء على هذه الوصية.

وفي أُحد أيضًا نجد الرسول ﷺ يأمر المسلمين أن لا يبدءوا بالقتال طالما أنه لم يأمرهم بذلك(٢).

وقد طبق المسلمون ما أراد الرسول ﷺ في هذه الوصية لا سيما وأن هناك رواية تشير إلى أن أول من أنشب الحرب بين الطرفين في هذه الغزوة أحد المشركين الذي خرج في خمسين

(١) الواقدي، المغازي، ١/ ٦١.

(٢) الواقدي، المغازي، ١/ ٢٢٠، ابن هشام، السيرة النبوية ٣/ ٦٥، ابن كثير البداية والنهاية، ٤/ ١٤.

من قومه ومعه عبيد قريش[١]. وكذا الحال في غزوة المريسيع[٢]. وفي يوم خيبر وهو يواجه الحصون[٣].

ولكن خير ما يوضح هذا الأمر وصية الرسول ﷺ للإمام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما أرسله في سرية إلى اليمن إذ قال له: «إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك، فإن قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منك قتيلًا، فإن قتلوا منكم قتيلا، فلا تقاتلهم تَلَومْهُم (تنتظرهم) تُرهِم أناة»[٤].

ويظهر من هذا النص أن الرسول ﷺ قد قسم سياسته السلمية إلى مراحل فهو في وصيته للإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان يأمره بأن يدعو القوم للسلم في المرحلة الأولى، فإن رفضوا فلا يقاتلهم حتى وإن قاتلوه، أي أنه يبدأ معهم بدعوة سلمية أخرى، فإن رفضوا – حتى وإن قتلوا منه – فيدعوهم إلى

(١) الواقدي، المغازي ١/ ٢٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ١/ ٤٠١.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٦٤٩.

(٤) المصدر نفسه ٣/ ١٠٧٩.

مرحلة سلمية ثالثة ثم ينتظرهم بعد ذلك عسى أن يهتدوا للسلم.

وفي ضوء ما تقدم يمكن أن نسجل بعض الملاحظات الآتية:

١- أن الرسول ﷺ اتخذ من أسلوب عدم المبادرة بالقتال كدعوة سلمية أخيرة للعدو.

٢- اندماج هذا الأسلوب بخطط الرسول ﷺ العسكرية وجعله سلاح ذو حدين فهو علاوة على كونه دعوة سلمية فهو ركيزة لقوة المسلمين، وجعلها مجتمعة لصد الهجوم المحتمل.

٣- تقسيم أسلوب عدم المبادرة بالقتال مراحل، كما رأينا في وصية الرسول ﷺ للإمام علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في سريته إلى اليمن، والغاية من ذلك سلمية وعسكرية أيضا، وذلك من خلال تجنب القتال في مكان بعيد عن المدينة والسعي للسلم حتى في مراحل متقدمة من المعركة، وذلك خوفا على المسلمين.

٤- الأمر الآخر في نوايا الرسول ﷺ السلمية وتجنب

القتال هو مسألة إلقاء الحجة على العدو، وهي على ما يبدو مرحلة قد تتداخل مع المرحلة السابقة فربما تكون لاحقة لها، وربما تكون سابقة.

ويطالعنا الواقدي برواية عن معركة بدر ذكر فيها إرسال الرسول ﷺ لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى قريش لما نزلوا ببدر إذ قال لهم: (ارجعوا فإنه يلي هذا الأمر مني غيركم أحب إلي من تلوه مني، وَأَلِيَهُ من غيركم أحب إليَّ من أن أَلِيَهُ منكم)(١).

ويبدو من سياق الكلام أن الرسول ﷺ أراد إخبارهم وتذكيرهم بالرحم الذي بينهم، وأنه لا يحب مقاتلتهم، لكن ذلك لا يمنع القول بأنه حتى وإن كان الطرف الآخر هو غير قريش لأرسل الرسول ﷺ إليهم من يلقي عليهم الحجة، ويدعوهم لتجنب الحرب؛ لأن هذا من سياسته في السلم مع اختلاف بسيط في نوعية الخطاب الموجه إليهم، فقد يكون

---

(١) المصدر نفسه ١/ ٦١.

الخطاب فيه شدة أكثر من التي عهدها مع قريش وهذا نلمسه في خطابه لبني قينقاع لمن نقضوا العهد إذ قال لهم ﷺ يا معشر يهود أسلموا فوالله إنكم لتعلمون أني رسول الله قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش)[١].

وكذلك حدث هذا عندما أمر الرسول ﷺ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يكلم بني المصطلق في غزوة المريسيع[٢].

ويظهر أن الرسول ﷺ كان يحرص على اختيار الشخصية المناسبة والتي تتناسب مع الظرف القائم، فكما رأينا اختيار الرسول ﷺ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الغزوتين السابقتين بدر والمريسيع، وذلك لما هو معروف من شدة عمر وغلظته وهو ما احتاجه الرسول ﷺ في هذا الموضع، بينما نجه قد أرسل عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى قريش يوم الحديبية ليخبرهم

(١) الواقدي، المغازي ١/ ١٧٦، ابن هشام، السيرة النبوية ٣/ ٤٧، الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٤٧٩، السهيلي، الروض الأنف ٣/ ١٤٣، الحلبي، السيرة الحلبية (القاهرة ١٩٦٢) ٢/ ٢٢٠.

(٢) الواقدي، المغازي ١/ ٤٠٧.

بالرغبة في دخول مكة دون الحاجة إلى قتال[١]، والسبب في اختبار عثمان معروف تقريبا، وهو أنه أعزُّ في مكة وأكثر عشيرة، هذا أولا، ولأنه ليِّنًا عن غيره ثانيًا، وما أحوج الرسول ﷺ لهذا اللين في الحديبية.

وقد اتخذ الحجة طابعا أخر في كيفية، ويمكن ملاحظة ذلك في تصرف الرسول ﷺ مع أحدى الجموع التي جُمعت ضد المسلمين، إذ جمع شخص يدعى دعثور بن الحارث بن محارب جمعا من ثعلبة ومحارب بذي مر، فلما جاء رسول الله ﷺ لملاقاة القوم وعسكر أصابهم مطر، فذهب الرسول ﷺ لحاجة فأصابه ذلك المطر ثم نزع ثيابه فنشرها لتجف وألقاها على شجرة اضطجع تحتها والأعراب ينظرون إلى كل ما يفعل، فقالت الأعراب لدعثور – وكان سيدها – قد مكث محمد، وقد انفرد من أصحابه، فاذهب واقتله، فلما جاء ليضربه بالسيف دفعه جبريل عليه السلام فسقط ، فقام

---

(١) الواقدي، المغازي ٢/ ٦٠٠، ابن الأثير، الكامل ٢/ ٢٠١، ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ١٦٧.

الرسول ﷺ بالسيف على رأسه، فأسلم على أثر ذلك. واتفق مع الرسول ﷺ أن لا يكثِّر عليه أحدًا بعد ذلك[١].

وقبل التحدث عن هذه الرواية ومغزاها يمكننا تسجيل عدة ملاحظات عليها:

١- يبدو أن الحادثة لم تكن مصادفة، وإنما جاءت بتخطيط من الرسول ﷺ لتجنب القتال.

٢- أن مجريات الرواية تسير بمعزل عن المسلمين وكأنهم لم يكونوا على مقربة من الرسول ﷺ فيما نتحدث عن الأعراب وكأنهم وحدهم في المنطقة التي نام فيها الرسول ﷺ.

٣- حالة الصمت التي عمت المسلمين وجموع ثعلبة ومحارب، على الرغم من أن هذه الرواية تشير إلى قربهم الواحد من الآخر، فلما تفسر ذلك؟ ولماذا لم يبدأ المسلمون هجومهم؟ وإذا كانوا بهذا القرب كيف تركوا الرسول ﷺ بمفرده مع العدو؟.

(١) الواقدي، المغازي ١/ ١٩٥.

٤- يمكن أن نضيف أمرا يحل بعض هذه الإشكالات وهو أن القضية بكاملها ربما تكون قضية إعجازية، أي إنها سارت منذ البداية بشكل إعجازي ابتداء بسقوط المطر وحتى إسلام دعثور.

وعلى العموم فترجيحنا لأي أمر أعلاه يوضِّح دورًا دبلوماسيًّا للرسول ﷺ أراد به تجنب القتال وإلقاء الحجة على جمع ثعلبة ومحارب.

ومن خلال ما تقدم عن طبيعة الإجراءات التي اتخذها الرسول ﷺ في إلقاء الحجة على العدو يمكن ملاحظة الأمور التالية:

١- اختلاف مضمون الحجج التي يلقيها الرسول ﷺ على المقابل فمنها الترغيبية ومنها الترهيبية وحسب طبيعة الظروف.

٢- اختيار الرسول ﷺ للشخصية المناسبة التي تقوم بإلقاء الحجة والتي تتناسب مع الظرف السائد.

٣- ظهور طابع حديث في إلقاء الحجة وهو طابع إظهار المعجزات وإقناع المقابل لها.

***

المبحث الثاني

الفكر الدبلوماسي للرسول ﷺ ووسائله

كما مر فإن دبلوماسية الرسول ﷺ قد بنيت على نظام مُحكم في جميع جوانبها، فهي لم تكن مجرد الرغبة في السلم كما يريد الإسلام فقط، وإنما جاءت خليطا من الخطط الناجحة والوسائل المناسبة، والأهداف والأغراض التي تم تحقيقها، لذلك سنحاول تسليط بعض الضوء على هذه الجوانب لكي تتضح الصورة أكثر في تفكير الرسول ﷺ في هذا المجال.

لو نأتي إلى وسائل الرسول ﷺ في دبلوماسيته فإننا يمكن أن نقسمها إلى قسمين:

أولهما هو الترغيب: والذي يختلف في صوره من طرف لآخر، ومن هذه الصور: الوعود، والتي هي على أشكال أيضا، إذ كانت هنالك الوعود بتولية المناصب، كما حدث عندما أرسل لرسول ﷺ سرية لقتل أسير بن زارم، وهو

يهودي كان يحرض على الإسلام، إذ قال لهم الرسول ﷺ أن يقولوا له (إن الرسول ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر، ويحسن إليك)[١]. وقد أثبت هذا الأمر نجاحا باهرًا عندما وافق أسير على الخروج مع هذه السرية مما أدى إلى تحقيق هدف الرسول ﷺ دون الحاجة إلى قتال اليهود الذين كان يحتمي عندهم.

وفي بعض الأحيان نجد الرسول ﷺ عندما يرسل جماعة في مهمة معينة يفتح لهم المجال والحرية في التفاوض مع الطرف المقابل، وتقديم الوعود التي يرونها مناسبة لتحقيق هدفهم، لا سيما في الحالات التي يرد بها فقال أحد المحرضين ضد الدعوة الإسلامية مثل ابن الأشرف اليهودي إذ قال النفر الذين ذهبوا لقتله :«يا رسول الله نحن نقتله، فأذن لنا فلنقل، فقال: قولوا». فرغبوه بالوقوف معه ضد الرسول ﷺ فرضي بذلك حتى أمنهم فقتلوه[٢].

---

(١) الواقدي، المغازي ٢/ ٥٧١، ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ٢٢١.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية ٣/ ٥٥، ابن سعد، الطبقات الكبرى ٢/ ٣٢، =

وكرر عبد الله بن أُنيس هذا الطلب من الرسول ﷺعندما ذهب لقتل سفيان بن خالد الهذلي فأذن له بذلك فنجح في مهمته[١].

وكان الرسول ﷺ في أوقات فداء الأسرى يرغب بعضهم بإطلاقهم دون فدية مقابل أن لا يكثروا عليه. ولا يشاركوا أعداءه ضده[٢]. إذ مَنَّ الرسول ﷺ في يوم بدر على الأسير أبي عَزَّة عمرو بن عبد الله بن وهب. وأحلفه أن لا يكثر عليه أحدًا فأرسله بغير فدية[٣]. وكذلك أطلق كل من لا مال له ومن لم يقدم عليه أحد[٤].

وقد أصاب (مونتجمري وات) الحقيقة عندما فسر مسألة

= الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٤٨٩، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢/ ١٤٤، ابن كثير البداية والنهاية ٤/ ٥.

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى ٢/ ٥١، ابن كثير ، البداية والنهاية ٤/ ١٤٠.

(٢) الواقدي، المغازي ١/ ١٤٢.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) المصدر نفسه ١/ ١٣٨ – ١٣٩.

إطلاق الرسول ﷺ لبعض الأسرى دون فدية إذ قال: إن الرسول ﷺ أطلق الأسرى الذين لم يكونوا متنفذين[١] ولا أغنياء بدون دفع الدية (دون فدية)؛ لأنه أخذ يدرك أهمية اكتساب قلوب المكيين بالنسبة له[٢].

وعلاوة على ذلك فأننا لا ننسى الخلق الإسلامي المتسامح تجاه هذه الأمور إلا أن نظرة الرسول ﷺ بعيدة المدى كانت حاضرة في أغلب قراراته والتي أثرت كثيرا على مجريات الأحداث.

وخلاصة القول يمكننا الاعتماد على النقاط التالية:

١- نظرًا لصعوبة اختراق المناطق التي يقبع فيها المحرِّضين على الإسلام وخطورة ذلك على المسلمين، نجد أن الوعود التي تقدم لهؤلاء المُحرِّضين تكون أكثر إغراء من وعود مماثلة في ظروف أخرى.

---

(١) أصحاب نفوذ.

(٢) محمد في المدينة، تعريب شعبان بركات (بيروت د. ت) ص٢٠.

٢- استخدام الوعود كمبدأ رئيسي في العمليات التي تمتاز بصعوبتها دون بقية الأمور، وتعويل الرسول ﷺ عليه تعويلا تامًا كما مرّ.

٣- ظهور صورة ترغيبية جديدة تعتمد على بُعد نظر الرسول ﷺ في تعامله مع الأحداث، وهذه الصورة هي إطلاق بعض الأسرى دون فدية بهدف كسب قلوب أهل مكة.

٤- يمكن أن نذكر إضافة إلى هذه الأمور أن الرسول ﷺ كان يعطي بعض الامتيازات الاقتصادية إلى جانب الامتيازات السابقة، وذلك تسهيل مهمته في الحصول على النتائج التي يريد تحقيقها، وهو الأمر الذي سنتناوله فيما بعد بشيء من التفصيل في المبحث الثالث.

- **الجانب الآخر من وسائل الرسول ﷺ الترغيبية** ؛ هو جانب المصاهرات السياسية إذ أن هناك رواية صريحة في هذا المجال تتعلق بوصية الرسول ﷺ لعبد الرحمن بن عوف عندما أرسله إلى قوم بني كلب في دومة الجندل إذ أمره أن يتزوج ابنة ملكهم أو ابنة سيدهم إذا ما استجابوا له، وكان

ملكهم نصرانيًّا(١).

ويجب أن لا ننسى ونحن نطالع هذه الرواية أن ملك بني كلب كان نصرانيًّا، ومع ذلك فيمكن أن يكون الرسول ﷺ قاصدًا لهذا الأمر في سبيل تحقيق اطمئنانا أكثر لبني كلب؛ لأن العكس فيه خطر كبير على المسلمين في دومة الجندل، فأراد من هذه المصاهرة تجنب حالات القلق، وأجواء عدم الثقة التي ربما قد تسود الطرفين.

ويقول (مونتجمري وات): إن زواج الرسول ﷺ من ميمونة أخت زوجة العباس (أخت زوجة العباس وأم حبيبة ابنة أبي سفيان كان مصاهرة سياسية(٢)). ويبدو أن (وات) قد انطلق في هذا الرأي من مكانة العباس وأبي سفيان في مكة، فلو تصورنا ما كان يدور في ذهن الرسول ﷺ من دخول مكة سِلما ودون قتال لأمكننا أن نربط هذا الأمر بهذا الزواج فعلًا، لكن

(١) الواقدي، المغازي ٢/ ٥٦١، ابن سعد، الطبقات ٢/ ٨٩.

(٢) محمد في المدينة ص ١٠٤، وميمونة بنت الحارث ليست أخت العباس، بل أخت زوجته، ولكنه ولي أمرها.

بالمقدار الذي لا يسيء للرسول ﷺ بشأن موضوع الزواج؛ لأن ذلك هدف مشروع دائما.

الأسلوب الآخر من أساليب الرسول ﷺ الدبلوماسية هو أسلوب الترهيب، والذي كان تتحكم فيه قوة وضعف الطرفان، فلذلك لم يستخدمه الرسول ﷺ كثيرًا في دبلوماسيته، ولم نجده يستخدمه في ظروف خاصة، نرى ذلك في حديثه مع بني ضمرة في غزوة بدر إذ كان قد واعدهم في غزوة ودّان، فقال الرسول ﷺ لرئيسهم مخشي بن عمرو الضمري: «إن شئت رددنا إليك ما كان بيننا حتى يحكم الله بيننا وبينك»(١).

ويبدو أن الرسول ﷺ ربما أحس بمحاولة نقض هذا الاتفاق من قبل بني ضمرة وإلا لما قال لهم ما قال؛ لأن الرسول ﷺ كان حريصًا على إبقاء السلم والتحالف مع جميع من شاركه ذلك، ثم إن بعض القبائل لا تعرف غير منطق القوة

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ٣/ ٢١٠.

في العلاقات القبلية.

وفعل الرسول ﷺ ذلك مع اليهود بعد قتل ابن الأشرف على الرغم من وجود الاتفاق بينهم إذ دعاهم الرسول ﷺ إلى أن يكتب بينهم كتابا ينتهون إلى ما فيه، فكتبوا بينهم وبينه كتابا، فحذرت اليهود وخافت، وذلك من يوم قتل ابن الأشرف[١].

وكان الرسول ﷺ بذلك ينطلق من مبدأ أحسن وسيلة للدفاع الهجوم إذا ربما تحاول اليهود أن تنال من المسلمين لقتلهم ابن الأشرف أو على الأقل تجنب ردة فعلهم في حال تفكيرهم بهذا الأمر.

خلاصة القول: فإن الترهيب لم يكن أسلوبًا أساسيًّا في دبلوماسية الرسول ﷺ كما كان الترغيب، وإنما طبيعة الظروف هي التي فرضت هذا القتل والتي لولاها لما مال الرسول ﷺ نحوه.

***

(١) الواقدي – المغازي، ٢٩٢.

المبحث الثالث

أغراض وأهداف السياسة الدبلوماسية للرسول ﷺ

١ - الأهداف السياسية:

ليس هناك أدلَّ ولا أوضح من صلح الحديبية كنموذج لبيان الأهداف السياسية التي كان يتوخاها الرسول ﷺ في دبلوماسيته، إذ يبدو أن هذا الصلح بالذات كان رؤية سياسية أكثر من شيء آخر، إلا أن هذه الرؤية لم يكن يدركها سوى الرسول ﷺ نفسه بما كان يمتلك من نظرة سياسية بعيدة، إذ نجد أن هذا الصلح قد تم كما أراد له الرسول ﷺ فقد أسلم في الهدنة أكثر ممن كان أسلم من يوم دعا رسول الله ﷺ إلى يوم الحديبية، وما كان في الإسلام فتح أعظم من هذا[١].

وقد تناول العديد من الباحثين النتائج المستوحاة من صلح الحديبية بما فيها هذا الجانب، إذ يبدو تأثير هذا الصلح على الساحة السياسية في تلك الفترة.

---

(١) المصدر نفسه ٢/ ٦٠٧.

وقال أحد الباحثين في هذا الشأن: إن هذا الصلح دل على دبلوماسية ماهرة للرسول ﷺ فقد تمكن بمقتضاه أن يحصل على أول اعتراف من مكة بزعامته السياسية بين العرب(١).

فيما قال آخر: إن هذا الصلح أعطى الرسول ﷺ فرصة للتأهب والاستعداد لنشر رسالة الإسلام داخل الجزيرة وخارجها، وإعادة تنظيم صفوفه تنظيمًا عسكريًا مزودا بقوة المادة وقوة الروح(٢).

ويضيف (مونتجمري وات) إلى ذلك: أنه حتى في نية الرسول ﷺ بالحج كانت لها نتائج سياسية، فلسوف يكون بالحج مظاهرة على أن الإسلام ليس دينًا غريبًا بل هو دين مركزه ومهده مكة(٣).

---

(١) رشيد الجميلي، محاضرات في التاريخ الإسلامي (بغداد، ١٩٦٩) ص١٠٥.

(٢) نظير حسان سعداوي، الدولة العربية الإسلامية (القاهرة، ١٩٦٧) ص٦٧، وينظر كذلك أحمد صالح العلي، الدولة في عهد الرسول ﷺ (بغداد د. ت) ص ٢٥٦.

(٣) محمد في المدينة ص ٧٠، ابن سعد، الطبقات ١/ ٣١٠.

ويمكن أن نبين الأهداف السياسية التي كان يتوخاها الرسول ﷺ من هذا الصلح والتي تحققت فعلا بالنقاط التالية:

١- اعتراف قريش بأن الرسول ﷺ ندا وطرفا مقابلا لها.

٢- إخبار القبائل بضعف القرشيين وأنهم لا يستطيعون إيقاف المسلمين، وربما أراد من ذلك إظهار زعامته السياسية على العرب.

٣- وضع حد لكل المتربصين بالإسلام من غير قريش من خلال هذا النصر السياسي، وتفرغ المسلمين لجبهة واحدة.

٤- انتشار الإسلام بين القبائل، وما يحققه ذلك من منعة وعِزَّة، وتأثير ذلك على الوضع السياسي العام.

٢- الأهداف الاقتصادية:

مما لا شك فيه أن دولة الرسول ﷺ في بداية تكوينها احتاجت إلى الأموال الكثيرة للإنفاق على شؤون الدعوة وشؤون الحرب. لهذا فقد وظف الرسول ﷺ دبلوماسيته في جزء كبير منها لهذا الغرض، وأخذ يضع شروط الصلح على أساس ترك الأموال للمسلمين، أو على أساس الجزية، أو

تأمين طرق التجارة الإسلامية فنجده ﷺ في أحيان كثيرة يحقن دماء عدوه المهزوم على أن يخرج بنفسه تاركا ماله وسلاحه خلفه، فقد نزل بنو قينقاع على حكم الرسول ﷺ على أن للمسلمين أموالهم(١). وتتجلى أهمية هذا الشرط بما تركه بنو قينقاع من سلاح كان المسلمون بأمسّ الحاجة إليه، لا سيما وقد بدءوا مرحلة النزاع المسلح مع قريش إذ كانت وقعة بني قينقاع بعد غزوة بدر مباشرة.

ويكرر الرسول ﷺ نفس الأمر مع بني النضير بعد معركة أحد، إذ أجلاهم على أن يتركوا كل سلاحهم، فيما يأخذوا من الأموال ما حملت الإبل فقط(٢).

(١) الواقدي، المغازي ٢/ ٥٩٥، ابن هشام، السيرة النبوية ٣/ ٤٨، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢/ ٢٩، الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٤٨٠، السهيلي الروض الأنف ١/ ١٤٣.

(٢) الواقدي، المغازي ١/ ٣٧٣، ابن هشام، السيرة النبوية ٣/ ١٩١، ابن سعد، الطبقات الكبرى ٢/ ٥٨، السهيلي، الروض الأنف، ٣/ ٢٥٠، الحلبي، السيرة الحلبية ٢/ ٢٨٤.

وهنا يكاد الأمر يكون أكثر وضوحًا إذ نجد الرسول ﷺ يشترط أن يتركوا كل السلاح الذي يملكونه، ولم يتفاوض عليه، على أن الأموال التي تركها بني النضير لم تكن قليلة، ولذا شكلت رصيدا جيدا للمسلمين.

وفي بعض الأحيان يجمع الرسول ﷺ بين شروط الحصول على الأموال والشروط الأخرى في مفاوضاته إذ نجده يشترط أخذ الأموال من بني قريظة فضلا عن حكمه فيهم، وهو حكم قتل الرجال، فقد حَكَّم الرسولُ ﷺ سعدَ بن معاذ في بني قريظة، وهو الذي أمر بقتلهم فرضي الرسول ﷺ بذلك(١). ويبدو أن حكم الرسول ﷺ كان يتناسب مع ظروف المعركة ومدى تأثيرها على المسلمين، فكان حكمه في بني قريظة من جنس فعلهم، إذ كانوا سيعرضون حياة المسلمين في المدينة للخطر، عندما نقضوا العهد وتحالفوا مع الأحزاب في معركة الخندق،

---

(١) الواقدي، المغازي ٢/ ٥٠١، ابن هشام، السيرة النبوية ٣/ ٢٣٩، الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٥٨٧، الكازروني، مختصر التاريخ، تحقيق مصطفى جواد (بغداد، ١٩٧٠) ص ٤٣.

فكانوا في نظر الرسول ﷺ يستحقون أكثر من الإجلاء الذي طبق على بني قينقاع والنضير.

ويمكننا من خلال إحصائية ذكرها ابن سعد عن الأموال التي تركها بنو قريظة أن نتصور مقدار الفائدة الاقتصادية التي يجنيها الرسول ﷺ في مفاوضاته، إذا ما قسمنا أموال بني قريظة على أموال اليهود الذين سبقوهم، والتي تم أخذها مقابل جلائهم، ويقول ابن سعد: «لما نزل بنو قريظة على حكم الرسول ﷺ وجد عندهم ألف وخمسمائة سيف، وثلاثمائة درع، وألفا رمح، وألف وخمسمائة ترس، وحجفة، وخمر وجر وسكر، ووجدوا جمالا نواضح وماشية كثيرة»(١).

ويبدو من خلال مطالعة الروايات أن واحدا من الأساليب التي دفعت الرسول ﷺ للانطلاق نحو خيبر هو السبب الاقتصادي؛ لأن اليهود لهم أموال كثيرة(٢) وهذا أمر راجح فعلا إذا ما علمنا مقدار الأموال التي حصل عليها المسلمون

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى ٢/ ٧٥.

(٢) نظير حسان سعداوي، الدولة العربية، ص ٦٨.

من يهود خيبر، ومدى مساهمتها في تحسين الأوضاع الاقتصادية للدولة العربية الإسلامية، ولكن مع ذلك لم يكن السبب المباشر لهذه الغزوة وإنما هناك أسباب أخرى أهمها تحالف اليهود مع أعداء الإسلام، ولكن ما يلفت النظر في هذا الموضوع هو أن الرسول ﷺ في كل الحصون التي فتحها كان يحقن دماء اليهود ويتركهم بذراريهم، ولكنه يشترط أن يُخلُّوا بينه وبين أموالهم، كما حصل في حصن كنانة بن أبي الحقيق إذ صالحهم الرسول ﷺ على حقن دمائهم وترك الذرية لهم ويخرجون من خيبر بذراريهم ويخلو بين رسول الله ﷺ وما لهم من مال أو أرض وعلى الصفراء «الذهب» والبيضاء «الفضة» والكراع «الخيل» والحلقة «السلاح» وعلى البَزّ إلا ثوبا على ظهر إنسان(١). وكانت هذه الشروط في جميع الحصون التي فتحها المسلمون(٢). وقد عامل الرسول ﷺ

(١) الواقدي، المغازي ٢/ ٦٧١.

(٢) الواقدي، المغازي ٢/ ٦٦٩، ابن هشام، السيرة النبوية ٣/ ٣٣٧، الطبري تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٠، ابن الأثير، الكامل ٢/ ١٨٦، الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٤٤.

اليهود في أراضيهم على النصف وإذا شاء المسلمون إخراجهم فعلوا[(١)].

ونجد الرسول ﷺ يصالح أهل فدك دون قتال على النصف من أموالهم[(٢)] وهذا يؤيد ما ذكرناه من هدف الرسول ﷺ الاقتصادي من وراء مفاوضاته في أيام خيبر، ولكن دون أن نبالغ في هذا الهدف لا سيما وأنه يكون تحصيل حاصل للانتصار.

وقبل الخوض في مصالحات الرسول ﷺ الأخرى ذات الهدف الاقتصادي ينبغي في ضوء ما مرّ أن نلتفت إلى عدة أمور:

١- أن هناك هدفا مزذوجًا في رغبة الرسول ﷺ بتحقيق القائدة الاقتصادية للمسلمين من وراء دبلوماسيته، وهذا الهدف هو فضلا عن كونه ماديا يكون أيضًا هدفا سياسيًّا وعسكريًّا يتمثل في إخضاع كل الأطراف التي تناوئ الإسلام.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ٣/ ٣٣٧.

(٢) الواقدي، المغازي ٢/ ٧٠٧، ابن هشام، السيرة النبوية ٣/ ٣٥٣، ابن الأثير، الكامل ٢/ ٢٢٥، الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٤٤.

٢- يمكن ملاحظة أمر مهم يخص هذا الجانب وهو أن الهدف الاقتصادي لم يؤثر على تطبيق سياسة الرسول ﷺ تجاه عدوه، فصحيح أنه ترك بعضهم مقابل المال إلا أنه طبق عقابه الصارم تجاه البعض الآخر الذي زادت إساءته للمسلمين مثل بني قريظة.

٣- أن الرسول ﷺ أراد أن يحصل المسلمون على مصدرًا اقتصاديا كافيا لهم حتى لا ينشغلوا عن الجهاد، وهذا ما نفهمه من تركه أراضي اليهود بأيديهم على أن للمسلمين النصف.

النوع الآخر من المصالحات ذات الهدف الاقتصادي هي مصالحات الرسول ﷺ التي حصل بموجبها على الجزية إذ نجده ﷺ قد توجه للأقوام غير المسلمة وصالحها بدون قتال على أن يدفعوا مقدرًا ماليًا أو عينيًا محددًا للمسلمين وهي لا تشبه مصالحته مع يهود خيبر أو فدك، والتي جاءت بعد أن توجه إليهم بقواته، صحيح أن فدك قد صالحته بدون قتال إلا أنها قد دخلت نفس الإطار الذي سلكه يهود خيبر من الاستعداد للمقاومة، والدليل على ذلك هو مقدار النصف

الذي أخذ منها، وهو ليس بمقدار الجزية التي أخذت فيما بعد من الأقوام الأخرى.

ومن الأقوام الذين صالحهم الرسول ﷺ على الجزية قوم أكيدر بن عبد الملك في دومة الجندل حيث صالحه الرسول ﷺ في طريقه من تبوك(١). ولكن نجد أن الواقدي الذي ذكر هذه الرواية يذكر في موضع آخر أن أكيدر أجاب للإسلام ولم يدفع الجزية(٢). ويمكننا أن نرجح الرواية الأولى؛ لأن أكيدر بقي في التزامه بالحياد، وهذا فضلا عن أن المصادر لم تذكر مثل هذا الأمر الذي ذكره الواقدي.

وكذلك الأقوام الأخرى قوم أيلة وهم في الشمال إذ قدم يوحنا بن رؤبة ملكهم وأقبل معه أهل جرباء وأذرح فأتوا النبي ﷺ فصالحهم على الجزية وكتب لهم كتابا بذلك، وكان مقدار جزيتهم يتراوح بين (١٠٠ – ٣٠٠) دينارًا وحسب الإمكانية للقوم(٣).

---

(١) الواقدي، المغازي، ٣/ ١١٨، ابن هشام، السيرة النبوية ٣/ ٥٢٦.

(٢) المغازي ٣/ ١٠٣٠.

(٣) الواقدي، المغازي ٣/ ١٠٣١، ابن هشام، السيرة النبوية ٣/ ٥٢٥.

أما عن النوع الأخير في دبلوماسية الرسول ﷺ ذات الهدف الاقتصادي فهو ما يخص معاهدات تأمين الطريق التجاري الإسلامي نحو الشمال، والذي يكاد يتداخل مع معاهدات الرسول ﷺ مع الأقوام الذين أخذ منهم الجزية إذ كانت واحدة من مهامهم التي كلفوا بها هي تأمين التجارة الإسلامية وحمايتها في حال تعرضها لأي خطر.

وهنا ما نلمسه أيضا في موادعة الرسول ﷺ لعيينة بن حصن الفزاري على أن يرعى بِتَغْلَمَيْنِ وما ولاه إلى المَرَاضِ «وبتغلمين من المراض على ميلين والمراض على ستة وثلاثين ميلا من المدينة على طريق الربذة»[1]. والهدف واضح من هذا الإجراء وهو تأمين السكة في شمالي المدينة، وبالتالي تأمين طريق المسلمين التجاري على الرغم من كون هذه التجارة محدودة جدًّا.

ويمكن ملاحظة عدة أمور حول معاهدات الجزية وتأمين الطريق التجاري:

(١) ابن سعد، الطبقات ٢/ ٦٣.

١- يكاد يكون هناك ترابطا وثيقا بين معاهدات الجزية ومعاهدات تأمين الطريق التجاري في الشمال، إذ كان على من يدفع الجزية حماية وتأمين الطريق لصالح التجارة الإسلامية إن وجدت فضلا عن دفعه الجزية.

٢- يستخلص من الجزية كما نعول على المصادر الاقتصادية الأخرى، ولما يمكن القول بأن مقدارها كان رمزيا تقريبا.

٣- يلاحظ أن الرسول ﷺ قد وضع بعض المعاهدات مع أقوام من غير سكنة المنطقة الشمالية لترعى فيها، والقصد من ذلك فضلًا عن تأمينها الطريق للمسلمين فإنها تعد كدورة لصد أي هجمات على المدينة من جهة الشمال.

٣- الأهداف العسكرية:

لم تكن الأهداف العسكرية غائبة عن ذهن الرسول ﷺ في نشاطه الدبلوماسي مع عدوه، بل نجده دائما يستغل نشاطه الدبلوماسي لخدمة استراتيجيته العسكرية وبصور مختلفة، ومن هذه الصور محاولة تفكيك جبهة العدو بالتحركات

الدبلوماسية التي يراها مناسبة، وهذا يظهر واضحًا في يوم الخندق إذ أرسل الرسول ﷺ إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف وهما يقودان قومهما في هذه الغزوة مع قريش. وجعل لهما ثلث تمر المدينة على أن يرجعوا بمن معهما فرضيا بذلك ثم أرسل ﷺ كما تذكر الرواية استشارة قسم من أصحابه فرفضوا ذلك فأخبر الرسول ﷺ عيينة بسحب كل ما قاله لهم(١).

وقد ذكر بعض الباحثين خطأً أن الرسول ﷺ اشفق على المسلمين وما عانوه في هذه الغزوة فآثر الصلح عن ثلث تمر المدينة مقابل ذلك، وأن الصحابة هم الذين أقنعوا الرسول ﷺ بالكف عن الصلح(٢).

---

(١) الواقدي، المغازي ٢/ ٤٧٧، ابن هشام، السيرة النبوية ٣/ ٢٣٣، الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٤٧٣، السهيلي، الروض الأنف / ٢٧٦، ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ١١٣.

(٢) الجميلي، محاضرات في التاريخ الإسلامي ص ١٠١، أحمد صالح العلي، الدولة في عهد الرسول ﷺ، ص ٢٤٤.

ولكن يمكننا القول بأن الرسول ﷺ لم يكن راغبا في الصلح؛ لأنه أشفق على المسلمين وما عانوه، وإنما كان صلحا ظاهريا فقط فلم يكن الرسول ﷺ يرغب في ذلك بل أنه أراد أن يصل خبر الصلح إلى بقية الأحزاب، وبالتالي تفكيك جبهة التحالف ضد المسلمين.

ويمكن الاستناد في هذا الرأي إلى عدة أمور:

١- من المعروف أن الرسول ﷺ يستشير أصحابه قبل الإقدام على العمل الذي يريد القيام به وليس بعد أن ينفذه كما تذكر هذه الرواية.

٢- ربما يكون الرسول ﷺ قد أقدم على هذا العمل بموافقة أصحابه على أن يرفضوا ذلك عندما يتم الأمر، وبهذا يحققوا الهدف من قبول غطفان للصلح، وتلطيخ سمعتها بين حلفائها.

٣- حتى إذا تنازلنا وقلنا أن الرسول ﷺ قد تصرف بمفرده في هذا الأمر فلابد وأنه كان على يقين برفض أصحابه فيما بعد، وهو الشيء الذي أراده.

وعلى العموم فقد نجح الرسول ﷺ في تفكيك هذا التحالف بهذه الخطة الدبلوماسية الدقيقة جدا، لا سيما وأنه عرف من أي باب يدخل إلى غطفان، وهو باب الامتيازات المادية؛ لأنهم أساسا تحالفوا مع قريش لهذا السبب فقط، وهم على استعداد للوقوف مع من يزيد امتيازاتهم الاقتصادية.

وقال (مونتجمري وات) بشأن خطة الرسول ﷺ هذه «كانت تلك معركة الذكاء. وقد انتصر فيها المسلمون فقد أضعفوا العدو، وزادوا التفسخ فيه»(١).

وقد جدد الرسول ﷺ هذا الأمر مع عيينة في معركة خيبر، ووعده بإعطائه نصف تمر هذه المنطقة إن رجع بمن معه. فرفض ذلك(٢).

واستخدم الرسول ﷺ هذه السياسة الرامية إلى تفكيك جبهة العدو في يوم حصار الطائف إذ أمر أن ينادى المنادي أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج من

---

(١) محمد في المدينة ص ٥٨.

(٢) الواقدي ٢/ ٦٥٠.

الحصن رجال[١] .

ويظهر من ذلك كيف أراد الرسول ﷺ أن يفرق العدو ويشتت كلمتهم ويزرع الاختلاف بينهم، فلا يكونوا جبهة واحدة وإنما يبحث كل واحد على مصلحته الخاصة.

وفي بعض الأحيان يكون الهدف العسكري للرسول ﷺ من دبلوماسيته هو كسب الوقت لكي يبني قوته أو لكي يكون أكثر حرية في تنظيم جيشه، ويظهر هذا الحرص من الرسول ﷺ بشكل واضح في موادعته مع جميع اليهود في المدينة إذ جعل بينه وبينهم أمانا[٢]، بل إنه أراد أن يوادع كل الأخلاط الموجودة في المدينة وبمختلف أصنافهم[٣]. ومعلومٌ أن إجراء الرسول ﷺ هذا كان إجراء طبيعيا لا سيما إذا ما عرفنا عدة أمور:

١- أن الرسول ﷺ لا زال في طور تكوين قوته سواء أكان

(١) الواقدي، المغازي ٣/ ٩٣١،ابن هشام، السيرة النبوية ٣/ ٤٨٥.

(٢) الواقدي، المغازي ١/ ١٧٦.

(٣) الواقدي، المغازي ١/ ١٨٤، المكي، سمط النجوم ٢/ ٧٧.

منها السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية، والتالي فإنه لا يريد الاصطدام مع عدو لا يعرفه جيدا.

٢- أن الرسول ﷺ لم يعرف من يعارضه ممن يوافقه، وهل إن الأنصار سيأيدونه في حال حاجته إليهم أم لا؟؛ لأن ظاهر الأمور لم يكن يكفي لأن يصدر الرسول ﷺ أحكامه بهذا الشأن.ذ

٣- بالنظر لأن اليهود معروفين بغدرهم وباغتنامهم الفرص فإن ما قام به الرسول ﷺ يعد أمر مروعا جدا لتجنب ما قد يقومون به، لا سيما وأنهم كانوا يمتلكون من السلاح ومن المال الشيء الكثير.

٤- لا ننسى أن الرسول ﷺ بوجوده في المدينة قد سحب البساط عن الكثير ممن كانوا يتطلعون للزعامة السياسية، فلا عجب أن يتجنبهم الرسول ﷺ ويحاول موادعتهم.

وكان واحدًا من أهداف صلح الحديبية هو كسب الوقت ليتفرغ الرسول ﷺ لنشر دعوته بحرية، وذلك قبيل دخول القتال في دين الإسلام، فإن من هذا الصلح وضع الحرب عشر

سنين. فمن دخل الإسلام بعد هذه الهدنة كان أكثر ممن دخل من يوم بعثه الرسول ﷺ في يوم الحديبية، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على جَدَوى هذا الإجراء الدبلوماسي الذي سهل للرسول ﷺ التحرك والدعوة للإسلام.

الطريق الدبلوماسي الآخر الذي استخدمه الرسول ﷺ للضغط على أعدائه، هو طريق التضييق والحصر، والرسول ﷺ يعلم أن إضعاف قوة عدوه العسكرية عن طريق عرقلته وإكثار الفاقد عليه وحصره تحسبًا، فيبعث السرايا لتحقيق هذا الأمر من خلال المعاهدات مع القبائل الساكنة على الطريق التجاري الذي تمر به تجارة مكة.

وكان عدد المشاركون في بعض هذه السرايا قليل، وهذا يعني أن كثيراً منها كانت في الحقيقة بعثة دبلوماسية تهدف إلى عقد الاتفاقيات وليست للقتال، ولهذه الاتفاقيات أهمية كبرى في الصراع مع مشركي مكة، ذلك أن قريشًا قد بسطت نفوذها، وعززت مكانتها بالإيلاف إي الاتفاقيات مع القبائل التي تمر بها قوافلها التجارية، ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول ﷺ بتنظيم

علاقاته مع القبائل الفاصلة في الأطراف الغربية من المدينة، والتي تمر بديارها قوافل قريش(١).

وانطلاقا من ذلك وادع الرسول ﷺ بني ضمرة من كنانة على أن لا يكثروا عليه، ولا يعينوا عليه أحدا ثم كتب بينهم كتابا(٢)، وكانت بني ضمرة تقع في الأطراف الجنوبية الغربية من المدينة، أي على طرق القوافل التجارية القريشية، وهذا يعني مدى تأثير ذلك على قريش وتجارتها، ولا سيما وأن الرسول ﷺ لم يكتفِ بذلك، بل وادع في غزوة العشيرة بني مدلج وحلفاءهم أيضا(٣).

ويمكننا أن نعرف مدى الأضرار التي لحقت بقريش من قول أحد أكثر رجالاتهم إذ قال صفوان بن أمية: «إن محمدًا

---

(١) الواقدي، المغازي ٢/ ٦٦١، ابن الأثير، الكامل ٢/ ٢٠٣، ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ١٦٨.

(٢) ينظر صالح أحمد العلي، الدولة في عهد الرسول ﷺ، ص ٢١٤، نظير حسن سعداوي، الدولة العربية، ص ٥٥.

(٣) الواقدي، المغازي ١/ ١٢، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢/ ٨، الشيخ محمد عساف، خلاصة الأثر في سيرة البشر (بيروت، ١٩٧٨) ص ١١٢.

وأصحابه قد عَوّرُوا[١] علينا متجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، لا يبرحون الساحل. وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن في دار هذه ما لنا بها نفاق»[٢].

الشيء الذي يثير الدهشة أن الرسول ﷺ استخدم حتى اتفاقياته مع قريش نفسها في قطع الطريق عليها، فقد كان هناك بند في صلح الحديبية أن يردّ الرسول ﷺ من يسلم بدون إذن من ولي أمره من قريش، ففعل الرسول ﷺ ذلك وكان نتيجته أن تجمع المسلمين الذين أعادهم الرسول ﷺ في طريق تجارة قريش، وأخذوا يقطعون الطريق عليهم[٣]، ولا تبالغ إذا قلنا أن الرسول ﷺ كان يعلم أن هذا سيحدث عندما عقد الاتفاق مع قريش.

---

(١) كذا، ولعل الصواب: «وعرّوا».

(٢) الواقدي، المغازي (١/ ١٩٧)، ابن سعد، الطبقات ٢/ ١٠، المكي، سمط النجوم ٢/ ٩.

(٣) الواقدي، المغازي ١/ ١٩٧.

وأخيرا فإنه يمكن أن نخرج بمجموعة من الملاحظات حول هذا الجانب:

١- أن الرسول ﷺ أدرك أن عصب حياة مكة تجارتها، فإذا ما تم ضرب هذه التجارة فإن هذا يعني ضرب كيانها ككل.

٢- يمكن ملاحظة مواقع القبائل التي تحالفت مع الرسول ﷺ أن ندرك أن هناك هدفا آخر غير الهدف الخاص بقطع الطريق على قريش. وهذا الهدف هو منع أي تعرض للمدينة من هذه الجهات، وهو نفس الهدف الذي سبق ذكره عن بعض تحالفات الشمال.

٣- اعتراف قريش بأثر هذه السياسة الدبلوماسية وما جرَّته عليها من مشكلات ضعفت من قوتها كثيرًا.

٤- كما هو الحال في جميع سياسات الرسول ﷺ نجد النظرة بعيدة المدى في أهدافه من معاهداته، والشروط ذات التأثير السلبي المؤقت على المسلمين، والتأثير السلبي الدائم على أعدائهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين